﴿سورة البلد﴾

وفيها سبع مسائل:

المسألة الأولى: ما معنى النفى "بلا" فى قوله تعالى : ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ(١)﴾ ؟

والجواب: تعددت أقوال المفسرين فى معنى "لا" فى هذا القسم، وقد أحسن القرطبى حين جمع أقوال أهل العلم فيها، فذكر منها :

إنها زائدة – وهو قول الأخفش وغيره – والمعنى: أقسم بهذا البلد، وهو قول مردود عليه من أغلب أهل اللغة ، قال القرطبى: (فكيف يجحد القسم به وقد أقسم به)[١].

وقيل هى ليست للنفى وإنما هى بمعنى الإثبات، وعلى هذا المعنى جاءت قراءة الحسن والأعمش وابن كثير " لأقسم "من غير ألف بعد اللام إثباتاً، قال الشنقيطى: (يشهد لهذا الوجه قراءة قنبل: "لأقسم بهذا البلد" بلام الابتداء وهو مروي عن البزي والحسن)[٢] ، وأجاز الأخفش أيضاً أن تكون بمعنى " ألا "، وقيل بل هى بمعنى النفى الصريح والمراد: لا أقسم بهذا البلد إذا لم تكن فيه، أى لا أقسم بهذا البلد بعد خروجك منه، كما قيل إن " لا " ليست متعلقة بنفى القسم فى أول السورة، بل لها ارتباط بكلام سابق فهى رد لكلام المشركين ثم جاء القسم من الله ﷻ، وهذا اختيار ابن العربي، لأنه قال: (وأما من قال إنها رد، فهو قول ليس له رد، لأنه يصح به المعنى، ويتمكن اللفظ والمراد، فهو رد لكلام من أنكر البعث ثم ابتدأ القسم) [٣]، فالنفى هنا رد لما توهمهالإنسان المغرور بالدنيا، من أنه لن يقدر عليه أحد، ثم ابتدأ القسم .

المسألة الثانية: ماالبلد المُقسَم بها وما معنى: ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ(٢)﴾؟

والجواب: أجمع المفسرون على أن البلد المذكورة هنا هى مكة المكرمة، وقد أقسم الله ﷻ بها لشرفها وعظيم مكانتها، وهو ما يتفق مع

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠ / ٥٩ .
(٢) أضواء البيان ، ٨ / ٣٧١ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٠ / ٥٩ .

قوله تعالى: ﴿**وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ(٣)**﴾، وهو قسم كما يرى كثير من المفسرين بآدم أبى البشر وذريته من بعده، فيكون الله ﷻ قد أقسم بأم القرى وأصلها وأصل البشر وأبيهم. ثم خاطب الله ﷻ رسوله ﷺ بقوله: ﴿**وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ(٢)**﴾، وفى معنى الآية أقوال:

الأول: أى أن الله ﷻ حرَّم مكة وجعلها حرماً آمناً، ولم يُحلها إلا لنبيه ﷺ حيث أحلها الله ﷻ لنبيه فى فتح مكة ساعة من نهار، قال المفسرون: (وَأَنْتَ – يا محمّد – حِلٌّ – حلال– بِهَذَا الْبَلَدِ (تصنع ما تريد من القتل والأسر، وذلك أنّ الله ﷻ أحلّ لنبيّه ﷺ مكّة يوم الفتح حتّى قاتل وقتل، وأحلّ ما شاء وحرم ما شاء، وقتل ابن خطل وهو متعلّق بأستار الكعبة، ومقيّس بن صبابة وغيرهما ثمّ قال: (من دخل دار أبي سفيان فهو آمن) فأحلّ دم ابن خطل وأصحابه وحرّم دار أبي سفيان، ثمّ قال ﷺ: (إنّ الله حرّم مكّة يوم خلق السماوات والأرض فهي حرام إلى أن تقوم الساعة، لم تحلّ لأحد قبلي ولا يحلّ لأحد بعدي، ولم يحلّ لي إلاّ ساعة من نهار، فلا يعضد شجرها ولا نختلي خلالها ولا نفر صيدها ولا يحلّ لقطتها إلاّ المنشد) [١].

الثانى: إن هذه الآية تتحدث عن أهل مكة الذين استحلوا حرمة الرسول ﷺ واعتدوا عليه وعلى أصحابه فى هذا البلد الحرام، قال الزمخشرى: (إن مثلك على عظم حرمتك يُستحَل بهذا البلد الحرام كما يُستحَل الصيد في غير الحرم، عن شرحبيل: "يحرّمون أن يقتلوا بها صيداً ويعضدوا بها شجرة، ويستحلون إخراجك وقتلك" وفيه تثبيت من رسول الله ﷺ، وبعث على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة، وتعجيب من حالهم في عداوته)[٢]

أما الثالث: فيرى أن معنى ﴿**وَأَنتَ حِلٌّ**﴾ من حلَّ بالمكان أى نزل فيه، وكأنها بشارة للرسول ﷺ بأنه سيرجع لمكة ويفتحها، وينزل بها عزيزاً

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠ / ٥٩ .
(٢) الكشاف ٤ /٧٥٧ .

منتصراً، بعد أن أخرجه قومه منها، ونظيره قوله ﷻ: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيكَ ٱلقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖ**﴾ (١)، ويكون المعنى عندئذٍ نقسم بهذا البلد حال كونك مقيماً ومستقراً فيه .

المسالة الثالثة: ما علاقة القسم بالبلد ، بقوله تعالى:﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلبَلَدِ(٢)﴾؟

والجواب: أن الله ﷻ لما عظَّم مكة وبين حرمتها بالقسم بها زادها إعظاماً ببيان أنها بلد أشرف الناس وسيد ولد آدم، وذلك أن شرف المكان بشرف السكان، قال البقاعى: (فقد وقع القسم بسيد البلاد وسيد العباد) (٢).

المسألة الرابعة: كيف خُلِق الإنسان فى كبد ؟

الجواب: الكَبَد هو المشقة العنت والنَّصب، (قال الحسن: يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة، وعن ابن عبّاس: في شدّة خلق حمله وولادته ورضاعه وفصاله ومعاشه وحياته وموته) (٣)، ومن أجمل ما قرأت من أقوال المفسرين فى بيان حالة الكبد والمشقة التى هى مرتبطة بالإنسان منذ خلقته إلى بعد موته وحسابه ما قاله بعض العلماء: (إن أوّل ما يكابد قطع سرته، ثم إذا قمط قماطاً وشدّ رباطاً يكابد الضيق والتعب، ثم يكابد الارتضاع ولو فاته ضاع، ثم يكابد نبت أسنانه، ثم يكابد الفطام الذي هو أشدّ من اللطام، ثم يكابد الختان والأوجاع، ثم المعلم وصولته،والمؤدب وسياسته، والأستاذ وهيبته، ثم يكابد شغل التزويج، وشغل الأولاد والخدم وشغل المسكن والجيران، ثم الكبر والهرم، وضعف الرُّكَب والقَدَم، في مصائب يكثر تعدادها من صداع الرأس، ووجع الأضراس، ورمد العين، وهمّ الدَّين، ووجع السنّ، وألم الأذن، ويكابد محناً في المال والنفس من الضرب والحبس، ولا يمضي عليه يوم إلا يقاسي فيه شدّة، ثم يكابد بعد

---

(١) سورة القصص / من الآية ٨٥ .
(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٤٢٦/٨.
(٣) الكشف والبيان ١٠ / ٢٠٧.

ذلك مشقة الموت، ثم بعده سؤال الملك، وضغطة القبر وظلمته، ثم البعث والعرض على الله تعالى إلى أن يستقرّ به القرار: إما في الجنة، وإما في النار)[1] وفى ذلك دليل قدرة الله ﷻ وعظمته ، وافتقار جميع الخلق إليه مهما علا شأنهم وكثرت أموالهم .

المسألة الخامسة: ما المراد بالنجدين، فى قوله تعالى :﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ(١٠)﴾؟

والجواب: قال بعض أهل العلم: إن النجدين هما الطريقان أى طريق الخير وطريق الشر، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿**إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا(٣)**﴾[2]، وكقوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ**﴾ [3] .

وقال بعض أهل العلم: إن النجد فى اللغة هو المكان البارز المرتفع ومنه سُميت نجد لارتفاعها، (قال قطرب: والنجد هو الطريق المرتفع فأرض نجد هي المرتفعة، وأرض تهامة هي المنخفضة) [4] فالنجدان هما الثديان لأنهما بارزان مرتفعان فى صدر المرأة، ولما كان الله ﷻ فى الآيات قبلها يمتن على عباده بتسوية خلقتهم وحسنها وجعل العينين واللسان والشفتين لهم، كان الحديث فى هذه الآية عن المولود أول ما يولد فيهديه الله ﷻ لثدى أمه دون تعليم من أحد له فيلتقمه ليأخذ منه غذاءه، وهى منة من الله ﷻ على خلقه كافة .

المسألة السادسة: فى قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ(١١)﴾ ما المراد بالعقبة ؟ وكيف يقتحمها الإنسان ؟

الجواب: العقبة هى عقبة كئود صعبة تحول بين الإنسان والجنة، وقيل هو مثل ضربه الله ﷻ لمجاهدة الإنسان لنفسه ودفعها فى أعمال البر والبعد عن الشهوات وعلى الإنسان أن يقتحمها ليعبر منها إلى الجنة.

---

(١) السراج المنير ٤ /٣٩٣ .
(٢) سورة الإنسان / الآية ٣ .
(٣) سورة فصلت / من الآية ١٧ .
(٤) النكت والعيون ٦ / ٢٧٨ .

أما عن كيفية عبورها واقتحامها :

فقد بيَّن الله ﷻ أن اقتحامها إنما يكون بخمسة أمور :

الأول: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ(١٣)﴾ أى عتق الرقاب أى تحرير الرقيق والإماء وقد صار هذا اليوم منعدماً ويحتمل أن يكون المراد أن يعتق الإنسان رقبته من النار بفعل الطاعات وترك المنكرات، وبه قال جمع من المفسرين .

الثانى: ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦)﴾، وهى وصية من الله ﷻ لمن أراد أن يقتحم العقبة ليصل إلى الجنة، فعليه بإطعام الطعام وهو من أعظم الأعمال فى رمضان أو فى غير رمضان، وهذا الإطعام إنما يزيد ثوابه ويعظم أجره إذا كان **﴿فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾** والمسغبة هى المجاعة وشدة الجوع إما لغلاء أو لقحط، وفي هذا اليوم تكون حاجة الناس إلى الطعام أكبر والبذل به حال وجوده أشق على النفس وأصعب، ونظيره قوله تعالى: **﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسكِينا ويَتِيما وَأَسِيرًا (٨)﴾**[١]، فالطعام قليل واليوم يوم مجاعة وشدة، ثم الإطعام يكون ليتيم فقد أباه وولى أمره، وهو يتيم قريب **﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾** أو لمسكين محتاج فقير معدم **﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾**، قال الفخر: (أى لصق بالتراب من فقره وضره فليس فوقه ما يستره ولا تحته ما يوطئه)[٢]

وهذه الآية تدلنا على أن العبد كلما اجتهد فى إيصال الصدقة لمن كان فى غاية الاحتياج إليها كلما عظم ثوابه وارتفعت درجته، فهذا الذى ينفق إنما ينفق طعاماً فى يوم مجاعة عزَّ فيه الطعام وندر، ثم هو ينفق هذا الطعام العزيز فى هذا اليوم العصيب على يتيم لا يجد من يقوم على أمره ثم هو يتيم تجمعه به صلة القرابة ليكون الأجر أضعافاً مضاعفة، أويطعم به مسكيناً جائعاً جعل التراب فراشه وغطاءه من شدة الفقر والعِوز.

---

(١) سورة الإنسان / من الآية ٨ .
(٢) مفاتيح الغيب ٣١ /١٦٩ .

الثالث: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أى وهو مع ذلك حريص على الإيمان يفعل الخيرات مع إيمان قلبه، إذ لا يصلح العمل دون إيمان ولا اتباع ولا إخلاص لله رب العالمين .

الرابع: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ أى أوصى بعضهم بعضاً بالتزام منهج الصبر وطريقه، والتمسك بأنواعه حال شهوة المعصية، وثقل الطاعة، وألم الأقدار والمصائب .

الخامس: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾ أى بالرحمة، (قال ابن عباس: كل ما يؤدي الى رحمة الله تعالى) [١]، أي أوصى بعضهم بعضاً برحمة الفقراء والمساكين، قال الجزائرى: (بمثل هذا تجتاز العقبة وينجو المرء من عذاب الله، وفي مثل هذا تُنفَق الأموال لا أن تنفق في الدسائس والمكر بالصالحين وخداع المؤمنين) [٢].

المسألة السابعة: ما الزيادة التى أضافها وصف النار بالمؤصدة ؟

والجواب: ﴿مُّؤۡصَدَةٌ﴾ اسم مفعول من أوصد الباب بالواو أى أغلقه، أو أأصده بالهمزة وهما لغتان، قال الفخر الرازى: (قرأ الجمهور: ﴿مُوصَدَة﴾ بواو ساكنة بعد الميم من أوصد بالواو، وقرأه أبو عمرو وحمزة وحفص عن عاصم ويعقوب وخلف بهمزة ساكنة بعد الميم من ءَاصد الباب، بهمزتين بمعنى وصَده) [٣].

وفى هذا زيادة العذاب عليهم وقطع لحبل الأمل فى نفوسهم فلا منجى ولا مهرب من النار، فهى (مطبقة لا ضوء فيها ولا فرج ولا خروج منها آخر الأبد) [٤] .

وهنا لطيفة تحسن الإشارة إليها: الناظر إلى خاتمة سورة البلد ﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ (٢٠)﴾ يجد بينها وبين خاتمة سورة (الهمزة) ﴿إِنَّهَا

---

(١) المحرر الوجيز ٥/٤٥٧ .
(٢) أيسر التفاسير ٥ / ٥٧٥ .
(٣) مفاتيح الغيب ١٦ / ٣٥٥ .
(٤) تفسير القرآن العظيم ٤ / ٥١٦ .

عَلَيهِم مُّؤْصَدَة (٨) فِي عَمَد مُّمَدَّدَةٌ (٩)﴾ مشابهة، بيد أن خاتمة (الهمزة) وردت فيها زيادة ﴿**فِي عَمَد مُّمَدَّدَةٌ٩**﴾ والتى لم ترد فى سورة البلد فما العلة فى ذلك ؟

أجاب على هذا السؤال د. السامرائى فقال: (كل تعبير هو أليق بمكانه من نواح منها :

- أنه توسع فى سورة الهمزة فى ذكر صفات المعذَّب وتوسع فى ذكر العذاب، فذكر فى صفات المعذَّب أنه ﴿**وَيْلٌ لكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣)**﴾ فى حين أنه لم يزد فى سورة (البلد) على ﴿**وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَيٰتِنَا**﴾ ولما توسع فى ذكر المعذَّب توسع فى ذكر عذابه، فناسب ذلك ذكر الزيادة فى سورة الهمزة دون سورة البلد .
- ذكر فى سورة الهمزة أن هذا الكافر جمع المال وعدده كى يحفظه من النقصان فكما حفظ المال وأغلق عليه الأبواب، أُغلِقت عليه أبواب جهنم واستوثق منها بأن مُدَّت عليها الأعمدة، فى حين أنه ذكر فى سورة البلد أنه أهلك مالاً لبدا، فذلك أهلك المال وأنفقه، وهذا جمع المال وحفظه، فناسب ذكر الحفظ وشدة الاستيثاق فى سورة الهمزة الاستيثاق من غلق باب النار عليه، والجزاء من جنس العمل .